# الزوجة المهجورة

بقلم :

عيسى ابراهيم الناعوري
استاذ
العربية وآدابها في ثانوية
[ الحصن ] شرق الأردن

[ هذه الاقصوصة وضعتها في فلسطين — يوم كان للعرب فلسطين — ولكنها لم تنشر قبل اليوم ولعل في مأساة بطلتها شبهاً كبيراً بمأساة فلسطين فكلاهما ضحية الاهل والاقربين ، وكلاهما من مآسي الواقع الاليم القتال . . . ] ع . ن

عرفتها منذ عامين ، أي بعد زواجها لابن عمها بعام واحد . وكانت سيدة فاتنة ، لا تتجاوز السابعة عشر من عمرها . واتصلت بيني وبين زوجها وذويها أسباب الصداقة ، ثم انقطعت عنها وعنهم مدة طويلة ، بسبب انتقال مكان عملي الى بلد آخر . ولذلك لم أعد أسمع عنها خبرا ، حتى شاءت المصادفات المحضة أن ألتقي بها عرضا في أحد شوارع [يافا] في اثناء اجازتي الأخيرة . .

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكنت إذ ذاك أضرب في الشوارع الى غير غاية معينة . وحانت مني التفاتة ، فاذا بعيني تقعان على وجه أعرفه ، وكنت أنسيته بعض الشيء ، أو لعل الظروف القاسية التي وجدت فيها صاحبة هذا الوجه الجميل قد غيرته ، حتى خيل الي أنني نسيته . وجعلت أسائل نفسي عمن تكون هذه السيدة . ولكن لم يطل تساؤلي ، فقد رأتني هي بدورها ، فوقفت عند باب الفندق الذي الى جانبها وعلى شفتيها الفاتنتين ابتسامة حزينة حائرة ، وسمعتها تقول لي : « أأنت هنا ؟ » .

وتذكرتها للحال ، إذ لا يزال صوتها الناعم على عهدي به لم يتغير .

يا لله ! انها هي بعينها ، فما لوجهها قد فقد شيئاً — ولو قليلا — من فتنته وسحره ؟ !

ودنوت منها ، ووضعت يدي في يدها مصافحاً بحرارة وأنا أهتف : « وأنت هنا أيضا ؟ ! إنها لمصادفة جميلة جمعتني بك بعد غياب طويل ! فكيف حالك ؟ » .

وكنت إنتظر أن ترد على سؤالي بالرد المألوف في مثل هذه المناسبة ، كأن تقول : « أنا بخير » ، أو شيئاً من هذا القبيل ، ولكنها لم تزد على أن عادت الى ابتسامتها الحزينة ثم قالت ، وكأنما تخاطب نفسها ، او تناجي روحياً من عالم الغيب : « ما يزال في الدنيا إنسان يجهل مصيري ، ويسألني عن حالي ! » . . .

فدهشت لذلك وسألتها : « أراك حائرة حزينة فهلا أخبرتني عن سبب حزنك ؟ » فأجابت بسرعة : كلا ! لا شيء لا شيء ! » . ثم عادت فسألت « هل تتفضل بزيارتي ؟ » فقلت : « بكل سرور ؟ فهلمي بنا الى بيتك . لقد اشتقت كثيراً الى رؤية صديقي « سهيل » زوجك » .

> تأمل ياسيدي أي شقاء تقاسيه المرأة حينما تجد نفسها كل ساعة في حضن رجل غريب قد يكون قذراً او مضابا او جلفاً فظ الطباع او حيوانا دنسا ولكنها تضطر الى ارضائه لتتفادى الموت جوعاً ؟

ونظرت الى عينيها ، فاذا هما تغالبان دمعتين حارتين سرعان ما مسحتهما بمنديلها ، وسارت أمامي مرتقية سلم الفندق وهي تقول : « تفضل ! اتبعني ! » . . .

تفضل ! اتبعني ! ؟ !

ماذا تعني هذه السيدة ؟ وهل أصبح الفندق مسكناً لها ؟ ولكنني لم أملك الا أن اتبعها الى حيث تمضي ، فقد ايقنت أن في الأمر سراً تحاول ان تكتمه دوني ، فلا بد

من استجلاء هذا السر .

وفي غرفة من غرف الفندق ، رثة الفراش والأثاث ، دخلت سميرة ، ودخلت خلفها بين نظرات الخدم الفضولية وهمساتهم المستهجنة (بكسر الجيم) . وأشارت علي بالجلوس على أحد المقاعد ، فجلست وفي النفس حيرة ، وفي العينين تساؤل ودهشة ، بينما راحت هي تخلع معطفها . فلم أستطع أن اكتم دهشتي وحيرتي من امرها ، فقلت : « ومتى نزلت هذا الفندق يا سميرة ؟ »

فلم تجب على سؤالي ، بل انتظرت حتى انتهت من خلع معطفها وتعليقه على المشجاب ، ثم جلست على مقعد الى جانبي وصمتت قليلا ، وإمارات الحزن مرتسمة على وجهها الذي لم يذهب الحزن بكل نضارته . فعدت ألقي عليها سؤالي قائلا « اجيبيني ! ما معنى هذا يا أختي ؟ ! »

فنظرت الي بعينين مغرورقتين بالدموع ، وقالت متوسلة « أرجوك يا سيدي ، لا تقل لي : «يا أختي » ، فانك بذلك تزيد في خدة آلامي ! »

وزاد هذا التوسل غير المنتظر من حيرتي ، فسألتها بلهفة : « اخبريني عما بك ، لعلي أستطيع ان اخفف عنك بعض آلامك ، يا سيدتي ! »

فأجابت وهي تمسح دموعها : « ولا هذه أيضاً ! . . بحقك يا سيدي لا تقل لي : « يا أختي » أو « يا سيدتي » ، فاني أحط من ان أستحق احدى هاتين التسميتين ! ادعني باسمي مجرداً ، فهو كثير علي ! »

ودفنت وجهها بين راحتيها ، وجعلت تنتحب بشبه حشرجة مؤلمة . فقلت بسرعة : «ماذا ؟ . . ماذا تقولين ؟!»

وراعني ان أقف على الحقيقة المرة من معنى عبارتيها الأخيرتين . . . نعم ، إنها لحقيقة مرة ، ما كنت أتوقعها مطلقا . ولكنني تمالكت جأشي ، ووضعت يدي على كتفها بحنان ، وقلت : « سميرة ! ... ارجوك . . لا تمزقي أحشائي ببكائك . أخبريني عما بك ، « يا أختي » ، « يا سيدتي ! . . »

فلم ترفع رأسها عن راحتيها ، بل قالت بصوت متقطع « إن هذا الحنان كثير علي ياسيدي ! . . فقد لفظني المجتمع منذ شهرين . . . كلا بل منذ عدة أشهر . . . نعم منذ عدة أشهر وأنا هنا حيث تراني ، انقلب كل ساعة في حضن رجل غريب ، لا يحس نحوي بغير الشهوة الحيوانية المجنونة . . . آه يا إلهي ! »

وتوقفت فترة ريثما تمالك أنفاسها اللاهثة . فسألتها والدموع تجول في مقلتي : « ولكن كيف وصلت الى هذا المصير ياسميرة ؟ إن عهدي بك بين زوجك وطفلك الصغير وأحسبك كنت سعيدة إذ ذاك ، فما الذي دفعك الى هذه الهوة ؟ »

فرفعت رأسها ونظرت الي نظرة حزينة عاتبة وهي تقول « تحسبني كنت سعيدة ؟ ! هل تعني ما تقول ؟ أم انك لا تعرف معنى السعادة ؟ . . أأنا كنت في يوم من الايام سعيدة ؟ لقد ساء ظني بكم يا معشر الرجال . انكم أناس بلا قلوب ! »

فقلت : « أما آن لك ياسيدتي ان تخبريني بقصتك ؟ ثقي بأنني أعطف عليك من كل قلبي . أخبريني ! »

ولم انتظر ردها ، بل رفعت عيني الدامعتين الى السماء وهتفت : « رحماك ربي ! أليس حراماً أن يطرح هذا الطعام الشهي للخنازير ؟ أليس كثيراً على الكلاب القذرة أن تجلس على هذه المائدة الفاخرة ؟ رحماك ربي رحماك ! »

وهنا ألقت سميرة رأسها على صدري ، ووضعت يدها على كتفي وقالت : « سأروي لك قصتي الآن ، وإن كنت أحس في كل كلمة منها خنجراً يمزق قلبي » .

وصمتت لحظة ريثما تصعد زفرة حارة ، ثم عادت تقول « لقد كنت احسبك سترذلني حين تعلم بخبري ، كما رذلني المجتمع كله من قبل ، ولم أكن اتوقع منك مثل هذا العطف الجميل علي ، لذلك سأخبرك بكل شيء ، نعم ، سأخبرك بكل شيء لأخفف عن نفسي بعض حملها الثقيل ، فأنا لم أجد مثل هذا العطف من زوجي ، ولا من أبي وامي . . . تأمل هذا ياسيدي ! . . زوجي وأبي وامي هم الذين دفعوني الى هذا الدرك بلؤمهم » . . .

— « يالله ! أيمكن هذا ؟ ! انه لأغرب ما سمعت في حياتي ! . . . أتمي حديثك يا أختي ، فاني مصغ اليك . لقد احببتك من قبل ، وما زلت الى الآن اعطف عليك عطف

المحب ، برغم شقائك » :

فرفعت عينيها الي بألم أعمق من ظلمة ليالي الشتاء وظلت تنظر الي لحظة وعلى شفتيها كلام حائر لا تعرف كيف تنطق به . ثم عادت الى حديثها بألم ، فقالت :

« لقد اخرجني أبي من المدرسة قبل ان انهي دروسي الابتدائية ، ليزوجني الى ابن عمي سهيل ، ولم يستشرني في الأمر ، لان ارادته يجب ان تتم في بيته بدون أدنى معارضة ولما كنت لم اعوده من قبل سوى الطاعة العمياء ، لم أستطع في هذه المرة الخروج على هذه القاعدة . وتم الزواج وحسبت ان آصرة القربى ستربط زوجي بي أحكم رباط ومر شهران على زواجنا ، ونحن نحسب نفسينا سعيدين . ثم بدأت قسوة الحياة تضغط علي بشدة ، فلم أجد بداً من احتمالها . لقد بدأ زوجي يتغيب عن البيت الليالي الطوال ، فما يخبرني الى أين يذهب ، ولا متى يعود ، وانا اعلم أن عمله لا يستدعي تغيبه عن البيت ليلة واحدة . ولكن هكذا قدر علي ، فرضخت لهذا النصيب القاسي .

« ومضى عام على ذلك . وانا لا أعرف نفسي . أخادماً كنت أم زوجاً ، أم قطعة من الأثاث وضعت في البيت وكتب عليها الاهمال ؟ لم أكن أشعر بأني سيدة ذات بعل فقد كنت اقضي ايامي بخدمة أبوي زوجي العجوزين وهي خدمة شاقة ، فأبوه شيخ كفيف ، وامه عجوز خرفة مقعدة «وزاد في الطين بلة ان وضعت غلاماً كدت افتقد الحياة على أثر وضعه لو لا رحمة الله ، او لولا لعنته ! . . . » .

وتوقفت قليلا لتصعد زفرة حارة وتقول : « ليتني مت إذ ذاك ، فلم يكتب علي هذا المصير المزري ، وهذا العار الشديد ! » .

ثم عادت تتابع حديثها فقالت :

« واضطر زوجي الى الانتقال الى هنا بسبب العمل ، فكأنما أحس بكابوس ثقيل ينزل عن عاتقه ، إذ حسب ان في وسعه ان يتخلص مني ، فيعيش حرا ، ويبقيني في بيت أبيه خادمة حقيرة . ولكن ذلك لم يتم له ، فقد أصر ذوي وذووه على انتقالي الى منزله هنا . فاضطر الى قبولي مرغما ولكنه لم يحسب حساباً لوجودي ، فقد جعل يتردد على البيت برفقة صاحباته على مرأى ومسمع مني .

« تأمل يا سيدي هذه النذالة ! ألست امرأة كسائر النساء ، تشعر بالغيرة القاتلة ، وتحب ان تستأثر وحدها بقلب زوجها ، ولها وحدها الحق في ذلك ؟ !

« غير ان زوجي لم يبال بهذا ، بل كان يتعمد اهانتي وتحقيري ، بمغازلة صديقاته أمام عيني ، أو بأن يقسرني على إعداد المائدة له ولهن . . . ولكنني صبرت حتى على هذا كله خمسة أشهر كاملة . فلما رأى صبري وتحملي ، عمد الى طردي من بيته ليتخلص مني » .

واغرورقت عيناها بالدموع من جديد ، فقلت لها : «ولم لم تلجأي الى بيت أبيك حتى تهدأ حدة طيش زوجك ؟ »

فأجابت بحسرة تقطع نياط القلب : ثق يا سيدي أن والدي كان له نصيب في إيصالي الى هذا المصير المخزي ! . . »

فقلت : « ماذا ؟ ! أفصحي يا سيدتي ، فما أفهم ما تعنين ! »

فأجابت : « أما تذكر تلك الاشهر الثلاثة التي قضيتها عنده ، حينما لجأت اليه من نذالة زوجي بعد طردي من بيته انك تذكر ذلك بلا ريب ، فقد كنت تتردد على بيتنا ، فما تعرف أنني مطرودة من بيت زوجي . لقد كان أبي وأمي طوال تلك الاشهر الثلاثة يعيرانني باللقمة التي يقدمانها لي ولطفلي . نعم يا سيدي ، لقد كانت اللقمة تنزل في حلقي كأنها الخنجر الحاد ، لانها كانت تقرن بألف معيار وكأنه ليس لي حق في بيت أبي بعد زواجي . . . إنك لا تصدق ذلك ، ولكن هذا هو الواقع .

« ولم أطق صبراً على هذا التعيير المتواصل ، وهذا المن المزري ، فعدت أستجير من الرمضاء بالنار . . . نعم ، عدت الى زوجي ألتمس الأمن في أحضانه ، ولكن أحضانه كانت ماتزال مفتوحة لسواي ، فلم أجد لي ولطفلي مكاناً بينها ولكنني صبرت ، وقنعت من العيش بالزاد الذي يفضل عن زوجي وصواحبه الظالمات ، وبالثوب أرقعه كلما بلي .

ولم ألبث طويلا حتى مات طفلي المسكين ، الذي كان هو الخيط الرفيع الذي يربطني بالعالم وبالحياة ، ويا ليتني

مث معه إذ ذاك ! . . . أواه ! هنيئاً لك يا طفلي ، فقد مت قبل أن يقدر عليك حمل عار أمك الشقية مدى الحياة ! . . . نعم ، لقد استراح طفلي من شقائه وبقيت وحدي لأحمل عار الابد .

« وضاق زوجي بي ذرعا ، فلم يعد يطيق رؤيتي ، فعاد يطردني من جديد وفي هذه المرة لم أعد أتحمل من والدي وأبعدت عن خاطري فكرة العودة اليها ، فقد كفاني ماتحملت من تعييرها مدة ثلاثة أشهر . ولذا لم أجد بداً من البحث عن عمل في هذا البلد الذي لا صديق فيه ولا قريب .

« وكاد الجوع يودي بي قبل العثور على عمل . . . فسقطت . . . يالله ! . . . نعم ، لقد سقطت مرغمة ، لاتفادى حدة الجوع . ولكن تلك القروش التي نلتها لقاء سقوطي راحت تحرق يدي كأنها السفافيد الملتهبة ، وخيل إلي ان فيها ألوفاً من العيون الملتهبة ، تقذفني بسهام من نار . فأسرعت ألقيها من يدي . . . يالله ما أصعب حمل العار !

« ولكن الجوع عاد يقرضني بأنياب حداد ، فهرعت الى تلك القروش التي رميتها ؛ لابتاع بها شيئاً يدرأ عني غائلة الجوع القاتل .

« لقد فكرت في الانتحار ، ولكنني جبانة يا سيدي ، فما أستطيع أن أجابه الموت بيدي . ولم أجد عملا شريفا أعيش به ، و . . . فعدت الى السقوط من جديد . . .

« لقد قتلت في نفسي كل عاطفة شريفة ، وكان القتلة زوجي ، وأبي ، وامي . . . هؤلاء هم المجرمون الذين قتلوا فيّ كل احساس نبيل ، فجدت بأعز ما أملك ، وأثمن ما تحافظ عليه المرأة الشريفة ، وذلك لقاء قروش اتبلغ بما أبتاعه بها . وهذا الفندق الذي تجلس فيه الآن أصبح مأوى تشردي منذ بدء سقوطي وعاري .

« تأمل ياسيدي أي شقاء تقاسيه المرأة حين تجد نفسها كل ساعة في حضن رجل غريب ، قد يكون قذراً ، أو مصاباً ، أو جلفاً فظ الطباع ، أو حيواناً متأنسا ، ولكنها تضطر الى ارضائه لتتفادى الموت جوعا .

« تأمل يا سيدي أي خنجر مسموم يحز في قلب المرأة وهي تسمع الناس يدعونها « بالمومس » ! وأي سهام تخترق شغاف قلبها وهي تسمع الشبان يتهامسون عن عارها ويقذفونها بقارص الكلم وهي تسير في الشوارع متعثرة بخطاها !

« آه يا إلهي ! أرحني من شقائي على أي وجه أردت.. لم يعد في استطاعتي يا إلهي ان أتحمل من العار أكثر مما تحملت ! » .

● ● ●

وكنت الى هنا صامتاً ، أتابع قصتها باهتمام وألم عظيمين فلما انتهت قلت لها مؤاسيا : « ثقي يا أختي بأن الله قد شاء ان ألتقي بك الآن ، لأتمكن من وضع حد لشقائك وآلامك سأعمل ما أستطيع لألحقك بعمل شريف تكسبين منه الرزق الحلال ، وسيكون ذلك قريباً جدا ، فلي قريبة أرملة طيبة القلب سأقنعها بقبولك في خدمتها . وغداً ستنتقلين الى بيتها . ستذهبين معي الى هناك ، وستستريحين الى جوارها مما تعانين من ألم مر ، وستنسين هذا العار الذي اوصلك اليه لؤم ذويك » .

فرفعت عينيها الدامعتين الي ، وفيهما نظرة تحوى ابلغ معاني الشكر ، ثم قالت . « لست أدري كيف اشكرك يا سيدي ! دعني أقبل يديك ، لا بل قدميك ، فمثلي لاتستحق ان تقبل يديك ! » .

وفي صباح اليوم التالي عدنا الى القدس ، وألحقت سميرة بالعمل الذي وعدتها به .

ولما عدت اليها بعد ثلاثة ايام ، استقبلتني على رأس السلم ، وصافحتني بحرارة وهي تقول . « لك الشكر يا سيدي ، فقد انتشلتني من هوة سحيقة القرار ، فعوضت بذلك عن نذالة زوجي وأبوي ، وأعدت الي راحة الضمير ! . . . »

عيسى ابراهيم الناعوري

---

إقرأ

# صرعى

مجموعة اقاصيص اجتماعية